العالم والسلطان في المغرب الأوسط جدلية ولاء وبراء.

إلهام قاتل*

تمهيد: أثارت مسألة علاقة العلماء بالسلاطين جدلا واسعا في الأوساط العلمية للمغرب الأوسط، فمن خلال استقراء لبعض كتب للاستغرافيا التاريخية للمغرب الإسلامي ككل تبين أن مواقف العلماء اتجاه مخالطة السلاطين قد أخذت عدة أشكال، والتي تراوحت بين الولاء والوفاء وبين النفور والعداء وتوزعت بين البطولة والخطورة وبين الانطواء والاحتواء، وفيما يلي سنحاول استعراض كل موقف على حدة مع الحجج التي ساقها كل طرف لتدعيم موقفه:

1– العلماء ومنطق الولاء للسلطة: الظاهر أن فريق الموالاة من العلماء للسلطة الحاكمة قد راهنوا على حيازة مواقع نافذة في بلاط الحكم يتاح لهم من خلالها المشاركة في صنع القرار السياسي، ذلك أنهم تعاملوا مع السلطة على أساس الأمر الواقع، حيث اعتبروا أصحابها من أولياء المسلمين تجب طاعتهم ولا يجوز الخروج عليهم حفاظا على المصلحة العامة، وحفاظا على وحدة الأمة وسدا للفراغ السياسي الذي قد تقع فيه الأمة بفقدانها الإمام أو الأمير الذي يحكمها .

ويبدو أنهم استندوا في مواقفهم هذه على فتوى الإمام مالك التي تحولت إلى ما يشبه قاعدة أو مبدأ لا ينبغي الخروج عنهم" سئل مالك عن بيعة عبد الله بن الزبير فقال: ما كنت أرضاه وابن الزبير أحق عندي من عبد الملك وابن عمر أحق من ابن الزبير..."[1]، فلم تعد المسألة مسألة تفضيل وإنما مسألة تعامل مع واقع ومع ظروف موضوعية، وظروف العصر لا يقدرها حق قدرها إلا أصحابها الذين عاشوها، ويشير أبو عبد الله محمد المقري (ت 758هـ) إلى مثل هذه القضايا في كتابه القواعد فيقول:" يجب ضبط المصالح العامة ولا تنضبط إلا بتعظيم الأئمة في نفوس الرعية، ومتى اختلف عليهم أو أهينوا تعذرت المصلحة..."[2]، ويضيف قائلا:" إن عناية الشرع بدرء المفاسد أشد من عنايته بجلب المصالح، فإن لم يظهر رجحان الجلب قدم الدرء"[3].

*طالبة دكتوراه ل.م.د سنة ثالثة– شعبة التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة محمد بوضياف– المسيلة.

فهناك من العلماء ومن بينهم الإمام مالك يجيز الدخول على السلاطين والأمراء لأن العلماء لو تخلفوا عنهم لأتاهم من يزين ظلمهم وطغيانهم وأهواءهم، فإذا بلغ العالم مبلغ الإمام مالك فله مبرر في الدخول عليهم فإنه المتمكن من نفسه، ولم يعهد عنه أنه سكت عن منكر أو ترك الأمر بالمعروف أو ساوم على دينه، وأشار بغير ما يرضي الله، بل كان حافظا لمقام العلم شريفا بشرف ما يحمل، فإذا كان للأمراء سلطان الزمن فللعالم سلطان العلم ومنه يستمد كل سلطان [4]. كما قبل الإمام مالك عطايا وجوائز السلاطين والأمراء، إذ كان يرى " مال في شبهة خير من مسألة الناس"[5].

وفي السياق نفسه نسجل حرصا من طرف أصحاب هذا الاتجاه على التنويه والتذكير بآراء أهم العلماء الذين رأوا خيرا في مخالطة العلماء للسلطة، فالماوردي صنف كتابا في نصيحة الملوك حثهم فيه على قبول النصيحة من العلماء والحكماء[6]، هذا ويؤكد على ضرورة مصاحبة العلماء لما في ذلك من منفعة على اعتبار أنهم أأمن من يمكن أن يصاحب السلطان، وفي تمكن العلماء وأهل الدين من مجلس السلطان قطع لأطماع الغواة من أهل الأهواء الفاسدة والبدع المهلكة[7]، "فيجب على الملك الفاضل والسائس العاقل أن لا يغفل عن هذه الخلة، بل يستبدل بالطبقة الفاسدة من المخانيث والمغنيين...؛ فإن الملك الفاضل والسائس العاقل لا يغفل أحد أن يدنس عرضه وملكه وعقله بالفواحش وذكر عورات الناس والتواجد على الغلمان والنسوان والعشق والمعشوق، فإن كل هذا سخف وركاكة يجب على البعيد الهمة أن يترفع منها ويربأ بهمته عنها..."[8].

وفي ذات الاتجاه نشير إلى تنويه أبو حامد الغزالي (ت505هـ)على أهمية العلماء في إرشاد السلطان إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم[9]، ويبدو أنه حاول من خلال هذا التنويه إيجاد مكان للعالم قريب من السلطة في صنع القرار السياسي من أجل القيام على التوجيه والإرشاد من الداخل لا من الخارج[10]. وهناك من رأى أن في قرب العلماء من السلاطين " استمالة لقلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم، واجتماعهم على محبته وتوقيره"[11]. وهذا ما جعل أبو حمو موسى الزياني يرتبهم في المرتبة الأولى ضمن جلساء السلاطين[12]، وفي المرتبة الثانية بعد الشرفاء في الدخول على السلاطين " لأنهم مصابيح الدين، وبهم اقتداء المسلمين، بهم تقام الشرائع وتسد الذرائع، ويعتصم بهم من الأهواء والبدع ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء وهم أعلام الإقتداء ..."[13] .

وفي هذا الصدد نجد من يلح على ضرورة طلب السلطان للعالم وليس العكس، وذلك إقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم:" إن الله يحب الأمراء إذا خالطوا العلماء، ويمقت العلماء إذا خالطوا الأمراء، لأن العلماء إذا خالطوا الأمراء رغبوا في الدنيا، والأمراء إذا خالطوا العلماء رغبوا في الآخرة" فحاجة السلطان للعالم أكثر من حاجة العالم للسلطان، فقديما قالوا شرار العلماء بباب الأمراء، وخيار الأمراء بباب العلماء[14].

ولكي تتضح الصورة أكثر عن مكانة علماء المغرب الأوسط وأهميتهم، وبما أن المجال السياسي الذي نشط فيه هؤلاء كان على الأكثر مجال الدويلات العصبية البربرية الكبرى (الزيانيين، الحفصيين، المرينيين) وفي الأندلس بصورة أقل، حق لنا التساؤل عن مواقف هذه الدول من العلم وأهله، وإلى تراتبيتهم الاجتماعية والسياسية، وإلى طبيعة العلاقة القائمة بينهم؟، وإذا ما كان علماء المغرب الأوسط شركاء في التخطيط والتوجيه العام للمجتمع أم حدد دورهم في الحضور الصوري وفي المظاهر التشريفية لمجالس السلاطين والأمراء فقط ؟!!

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات حق لنا الإشارة إلى أهم المبررات التي اعتمدها العلماء من أجل تبرير قربهم من المجال السلطوي، خصوصا وإن كنا نعرف تلك النظرات المريبة الإحتقارية التي قوبلوا بها من طرف الرافضين للتعامل مع المجال السلطوي!!.

ولذلك فقد نافح البعض عن مداخلة العلماء للسلاطين حتى يتمكنوا من مراقبة الشأن العام وتبرير خطابهم الإصلاحي، إذ "لا يخفى على ذي عقل أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين عن مداخلة الملوك لتعطلت الشريعة المطهرة لعدم وجود من يقوم بها، وتبدلت المملكة الإسلامية بالمملكة الجاهلية في الأحكام الشرعية من ديانة ومعاملة وعم الجهل، وخولفت أحكام الكتاب والسنة جهارا لاسيما من الملك وخاصته وأتباعه، وحصل لهم الغرض الموافق لهم وخطبوا في دين كيفما شاءوا، وخالفوه مخالفة ظاهرة، واستبيحت الأموال واستحلت الفروج، وعطلت المساجد والمدارس، وانتهكت الحرم وذهبت شعائر الإسلام، ولاسيما الملوك الذين لا يفعلون ذلك إلا مخافة على ملكهم أن يسلب، وعلى دولتهم أن تذهب، وعلى أموالهم أن تنهب، وعلى حرمتهم أن تنتهك وعلى عزمهم أن يذل، ووجدوا أعظم السبيل إلى التخلص من أكثر حكام الإسلام قائلين: جهلنا لم نجد من يعلمنا، لم نلق من يبصرنا، فر عنا العارفون بالدين، وهرب منا العلماء العاملون..."[15].

فقد كان للعلماء والفقهاء حظوة لدى المجتمع والدولة، أهلتهم للقيام بأدوار طلائعية في التجارب الإصلاحية التي عرفها المغرب الإسلامي، ولعل من أهم مظاهر الوظائف السياسية للعلماء أنهم كانوا يقومون بمراقبة وظائف الدولة[16]، وبذلك فإن الدعم السياسي للعلماء يسعف الدولة في تنفيذ الأحكام الشرعية مما يسهم في تحقيق الاستقرار السياسي والسلم والاجتماعي، لذا يجب أن يحدد العالم غاية خطابه الإصلاحي الموجه للسلاطين بأن يكون رجلا مقصده بالاتصال بهم الاستعانة بقوتهم على إنفاذ حكم الله تعالى[17].

لقد أشار علماء المغرب الأوسط وعلى رأسهم أبو العباس أحمد الونشريسي (ت914هـ) إلى تعدد مداخل الفساد ومظاهره في بعض جوانب دويلات العصبيات البربرية الكبرى وقد عزى ذلك إلى إيثار الولاءات على الكفاءات في إسناد السلاطين للوظائف الإدارية على مسمع ومرأى من العلماء تحت ما سماه "بدعة تقديم الجهال على العلماء في المناصب" فقال: "وفي تولية المناصب الشرعية من القضاء والفتوى والشهادة والتوثيق والخطابة والحسبة والأمانة في الأسواق والنظر على الأوقاف وأموال الأيتام والغياب بالتوارث والجاه لمن لا يصلح لها، وقال بعضهم : إن هذه المصيبة التي ابتلى بها العباد ما جاءت إلا من قبل الأمراء والعلماء، فإن بصلاحهم يصلح الناس وبفسادهم يفسدون...؛ ففساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب الجاه والمال، وهذه هي الدنيا من استولى عليه حبها لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأفاضل..."[18].

وأمام هذا الخطاب الذي تبنى فاعلية العالم في الإصلاح السياسي من حق الباحث في هذا المجال أن يتساءل عن مدى مصداقية هذا الخطاب ؟ أم أنه يبقى مجرد خطاب ترويجي من شأنه أن يضمن منصبا محترما للعالم داخل أسوار البلاط؟!!

في حقيقة الأمر من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، إلا أنه بإمكاننا استعراض نماذج علماء شاركوا بكتاباتهم أو بفتاويهم في بناء النظام السياسي، بالرغم أنه من العسير الإحاطة بكل ما كتب، فقد انقسمت إلى كتابات مباشرة وأخرى غير مباشرة يمكن العثور عليها في كتب النوازل والفقه والحديث والتاريخ والطبقات. وأشهر ما كتب في هذا المجال مقدمة عبد الرحمن بن خلدون مما جاء فيها من حديث عن الخلافة والملك[19]، وعن الوزارة[20] والكتابة[21] والحجابة[22]، وما إلى ذلك من الرتب الشرعية والسلطانية، وإن المتمعن في المقدمة سيجد فيها من الإصلاح السياسي

ومراعاة لشؤون الرعية الكثير، ومن ذلك حديث ابن خلدون في أن: "التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية"[23]، وحديثه على أن "الظلم مؤذن بخراب العمران"[24]...الخ.

ويمكن الإشارة إلى كتاب "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لمحمد ابن مرزوق التلمساني (ت781هـ) وعلى الرغم من أن هذا الكتاب اتخذ طابعا مناقبيا إلا أن بين سطوره حديث عن الخلافة، وعن وظائف الدولة كالوزارة والكتابة[25]، وإشارات إلى فضل العلماء في تأصيل النظم السياسية[26].

ويبقى كتاب"**واسطة السلوك في سياسة الملوك**" لمؤلفه السلطان أبي حمو موسى الزياني (760-791هـ/1359- 1389م) من أهم الكتب التي حاولت الإسهام في بناء نظم الحكم بالرغم من أن صاحبه هو السلطان ذاته، ساعده في ذلك ما كان يملكه من ثقافة وعلم، وما اكتسبه من حنكة وتجربة، فتكلم عن الملك وعن باقي الرتب السلطانية كالوزارة والكتابة، وبما أنه اعتمد على كثير من علماء السياسة الشرعية كالطرطوشي والمرادي مثلا، فإن هذا يؤكد قوة أثر علماء الإسلام في بناء لبنات أنظمة الحكم[27].

ومن العوامل التي نافح بها العلماء لكي ينظموا إلى المجال السلطوي الظروف التي كان يعاني منها المغرب الإسلامي فبالإضافة إلى تفككه إلى ثلاث دويلات عان من محاولات تقسيم على مستوى الإقليم الواحد، وعان أيضا من الاقتتال الدموي بين هذه الدول الثلاث، فضلا على ما كان يعاني منه الأندلس، فنادوا بالدعاء للسلاطين وحرموا الخروج عنهم، وفي ذلك يقول أحد الفقهاء:" وعندي أن الدعاء لهم في هذا الوقت مطلوب لكثرة أهل الفتن والمخالفين وأهل الفساد، فيدعوا لهم بما يصلحهم في أمر دينهم ودنياهم، ونصرهم على هؤلاء المفسدين قياسا على الدعاء على الكفرة ونصر المؤمنين لقوله تعالى:" فانصرنا على القوم الكافرين" خصوصا وأنه لا يخلو أول كل قرن من بركة في العلماء أو في الملوك"[28].

ومما يحسن ذكره في هذا المقام هو أن بعض علماء المغرب الأوسط قد حاولوا الحفاظ على نوع من الاستقلالية لشخصهم، وذلك عن طريق ترك مسافة قائمة بينهم وبين السلاطين الذين خدموهم، وفي هذا السياق تحضرنا حادثة أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ) والسلطان أبو عنان المريني، ومفادها أن السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن (749هـ- 753م/1348-1352م) كان قد أوصى الشريف التلمساني على ولده، وأودع له مالا عند أحد أعيان تلمسان

بعلم من العالم التلمساني، ولما بلغ خبر الوصية إلى أبي عنان سخط عليه لكتمانه الوصية ونكبه وسجنه أشهرا حسب ابن خلدون[29]، وتشير المادة العلمية المتوفرة لدينا إلى وقوع صدام لفظي بين السلطان والعالم ، ذلك أن أبا عنان عاتب الشريف التلمساني لعدم إبلاغه بخبر الوصية وذكره بتقريبه له ورفعه على العلماء، فكان رد الشريف التلمساني مشحونا بالغضب:" إنما لي شهادة، فلا يجب علي رفعها، بل سترها، وأما تقريبك إياي فقد ضرني أكثر مما نفعني، ونقص به ديني وعلمي"[30].

ويعد أبو عبد الله الشريف التلمساني (771هـ) نموذجا رائعا ونادرا لعالم دافع عن حرمة العلماء، وفرض هيبتهم على السلطة الحاكمة وحرص على التحلي بالصدق والأمانة، فمواقفه مع السلطان لا تخلو من جرأة وتحدي، ذلك أنه رفض أن يكشف عن الوديعة التي أوعها إياه السلطان الزياني من منطلق ما يمليه عليه الواجب الشرعي[31]، وعلى ما يبدو فإن مواقف الشريف التلمساني تميزت بالثبات، ومن ذلك أن مجلسه العلمي كان يحتضن كبير وزراء الدولة المرينية، وحدث يوما أن مال هذا الوزير على بعض الأئمة، فنظر إليه نظرة غضب، وعنفه وشدد عليه، فسكت الوزير ولم يقطع مجلسه[32]، ومن ذلك أيضا أن أبا عنان أراد أن يعنف أحد الفقهاء فانتصر الشريف التلمساني لهذا الأخير، إذ خاطب السلطان: " إذا كان عندك صغير فهو عند الناس كبير، وإنه من أهل العلم " فنجا الفقيه من النكبة[33]. وبالإضافة إلى كل هذه الخصال نجد أبا عبد الله الشريف التلمساني يرفض هبات وعطايا السلطان فلم يأخذ منه مرتبا واكتفى بالإنفاق من مال أبيه[34]. فأي عالم كنت يا أبا عبد الله؟!!![35].

ومن بين الحجج التي رافع بها أصحاب هذا الفريق من أجل احتكاكهم بالسلاطين هي تقديم خدمات اجتماعية للناس، وقضاء المصالح المتعلقة بالعامة، من الشفاعة للفقراء والتبليغ بالمظلومين[36]. فالحظوة التي حظي بها العلماء عند الخاصة والعامة أهلتهم للقيام بدور الوسيط بين المجتمع والسلطة[37]، لما تمتعوا به من ثقل معنوي لدى هذا الطرف أو ذاك استثمروه أكثر لخدمة أفراد المجتمع، فكثيرا ما تشير المصادر إلى أن العالم الفلاني كان "نفاعا بجاهه" وآخر "ولع بقضاء حوائج الناس لمنزلته الكريمة عندهم"، ومن الشواهد التي تدل على قضاء النخب العالمة لحاجات الناس عند السلاطين توسط والد محمد ابن مرزوق التلمساني لدى السلطان أبي الحسن من أجل أحمد بن القاسم بن الحاج لما شدد عليه الخناق وضيق عليه بعد اتهامه بأن العيون والجواسيس الذين

يصلون من تلمسان" ينزلون به فيؤويهم ويفيدهم ما يرجعون إليه من الأخبار" وقوبلت هذه الوساطة من طرف السلطان أبي الحسن المريني بالقبول[38].

ومن بين الأسباب التي جعلت الكثير من العلماء يلتحقون بالمجال السلطوي والتي لم يتحرج عن ذكرها بعض العلماء مثل عبد الرحمن بن خلدون الذي قال:" كنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت عليه"[39]، وتحرج عن ذكرها الكثير من العلماء، إلا أن الاستوغرافيا التاريخية للمغرب الإسلامي أفصحت عنها وهي: حب الجاه والعلو والرفعة، فبالغوا في التودد للسلاطين عن طريق المدح والتملق وتجاوز العيوب ومن بين هؤلاء يمكننا ذكر أبو عبد الله محمد التنسي الذي حاول عن طريق كتابه "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" إضفاء الطابع المناقبي على سلاطين بني زيان في قالب من الكرامات الخارقة التي لا يقبلها لا العقل ولا المنطق، ومن الأساس ألف التنسي هذا الكتاب إرضاء لولي نعمته السلطان الزياني المتوكل على الله (ت 873هـ)[40]، ونفس الشيء نجده عند محمد بن مرزوق التلمساني في كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" عندما حاول شرعنة الغير شرعي، وغض النظر عن معاناة سكان المغرب الإسلامي من الحروب الدائمة التي كان يشنها أبو الحسن المريني، وذلك عن طريق شرعنة الحرب والتأسيس لما كان يقوم به أبو الحسن المريني من القرآن الكريم والسنة النبوية[41].

وفي السياق نفسه يمكن الإشارة إلى صاحب "زهر البستان في دولة بني زيان"[42] الذي حاول تبرير الانتهاكات اللاأخلاقية لسلاطين بني زيان، ومن ذلك حديثه عن حادثة حصار السلطان الزياني أبو حمو لوهران "فأخذها عنوة بالضراب والطعان"[43]، دون أن يحاول انتقاد سلطانه أو يشعر بمعاناة أهل وهران، فعباراته تنم عن اعتزاز وإعجاب ومن ذلك "...قاتلهم قتالا شديدا، فلقوا من بأسه نكالا وتنكيدا"[44] و"عندما عاين الذّماميُّون خذلان الحصر لجئوا إلى القصبة بالمفر يطلبون التحصن بها والنجاة"[45]، و"هيهات أن ينتصر المخذول هيهات"[46].

وعلى ما يتراءى لنا فإن صاحب "زهر البستان" لم يكن وحده في موقفه السابق الذكر، ذلك أنه سجل في كتابه مواقف لعلماء عاصروه تأيد ما فعله السلطان أبو حمو موسى الزياني بأهل وهران، فهاهو الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي أحد أعيان بلاط أبي حمو يقول[47]:

– أَعدَّتْ قُلوبَ الأَعادي في خائفة كأنما كلُّ قَلْب طائر حـذرُ

– له جيوش لها نار مضرمة وقودها الناس لكن من له ضرر

- نعم وفيها لمـن والاه منفعة كالسحـب فيها النار والمطر
- يقودهـا ملك في بردة ملك في ذرعه أسـد في تاجه قمر
- ملك بهمته العليا وعزمته يستجاب النفع به أو به ترفع الضرر
- حامي الديار أبو حمو الذي فتحت له البـلاد ودان البدو والحضر

وفي خانة العلماء المتملقين للسلطة يصف لسان الدين ابن الخطيب صديقه وشيخه ابن مرزوق الخطيب فيحسن وصفه، فصوره في صورة عالم أبهر الدنيا بعلمه ورجل سياسة طموح جال البقاع بحثا عن مجده، تميز بالدربة في مصاحبة السلاطين والأشراف، مؤثرا مصاحبتهم عن بقية الفئات الاجتماعية، فتملق بخلابة لفظه، واهتم بما يحبون وما يكرهون أكثر من اهتمامه بنفسه، فكان دائم التلطف مازجا بين الدعابة والوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط، فقصدته الناس لقضاء حاجاتهم، فسفر الرقاع في سبيل الوساطة، خدم السلطان أبو الحسن، فكان مفضي سره وإمام جمعه وخطيب منبره وأمين رسالته، كلفه بسفارة إلى الأندلس سنة 748هـ غير أن الأقدار شاءت، وانقلبت الأمور على أبي الحسن، ليستقر ابن مرزوق في الأندلس ويخدم سلطانها فنال حظوة كبيرة عنده، غير أن هذه الحظوة لم تدم فسرعان ما صرفه السلطان عن خدمته سنة 754هـ، ويصف لسان الدين ابن الخطيب هذا الفعل بـ"صرف عنه جفن بره في أسلوب طماح ودالة وسبيل هوى وقحة" غير أن مشوار ابن مرزوق السياسي لم ينته هنا، فخدم في عدة بلاطات بعد عزله من الأندلس[48].

ويورد لنا المقري الجد قصة لعالم متملق للسلطة بالرغم من كبر سنه فيقول: "دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي وهو يجود بنفسه، وقد رأيته قبل ذلك معافى فسألته عن السبب، فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان، فسقط عن دابته، فتداعت أركانه، فقلت: ما حملك أن تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنك؟، فقال: حب الرياسة"[49]، إذن هو حب الرياسة !!!.

من خلال النص السابق يتراءى لنا كيف كان بعض العلماء –إن لم نقل أشباه علماء– يتسابقون للقاء السلطان، ويتهافتون من أجل كسب مودته، فهاهو عبد الرحمن الجزولي الذي لم يبال بكبر سنه يركب دابته من أجل لقاء السلطان أبو عنان، ليسقط من دابته وتتداعى أركانه، كما أننا نجد عتابا ولوما من طرف المقري الجد لهذا الشيخ في عبارة " ما حملك أن تتكلف مثل

هذا في ارتفاع سنك؟" ، ليجيب عبد الرحمن الجزولي بكل بساطة: حب الرياسة. فبربه أية رياسة هاته التي تجعله طريح الفراش.

إن القصة السابقة الذكر تحيلنا إلى اكتشاف ذهنية منغلقة، وإن صح التعبير متخلفة تقدس السلطان أو بالأحرى تعبده، ذهنية تجعل هذا العالم– أو شبيه العالم– شأنه شأن دابته ينتظر عند الباب العطف من السلطان!!!، تجعله ينتظر بشغف في طوابير الانتظار عله يحظى بيد السلطان لكي يقبلها؟؟، فما أسوأ هذا المشهد!!!

بعد استعراضنا لأهم المبررات التي رافع بها العلماء الذي كانوا مع مخالطة السلاطين، يمكننا الآن التكلم عن مواقف الدولة ورجالاتها من العلم وأهله وإلى تراتبيتهم الاجتماعية والسياسية.
ما يمكن تأكيده في هذا الشأن أنه قبل عصر دويلات العصبيات البربرية الكبرى قامت الدولة الموحدية على توجه فكري قاعدته العلماء بوجه عام من طلبة وأشياخ وحفاظ الذين تصدروا "لحمل العلم والتلقي"[50]، وكانت مكانتهم في طليعة حزب الموحدين حيث أوصى ابن تومرت (ت 524هـ) أنصاره بـ"إتباع الكتاب والسنة وتعليم التوحيد"، وذلك إضافة إلى وظيفة أخرى للعلماء تمثلت في حراسة العقيدة الموحدية وملازمة مجالس الخلفاء[51] .

والظاهر أن دويلات العصبيات البربرية الكبرى قد حذوا حذو أسلافهم الموحدين في العناية بالعلم والعلماء، فقد كان سلاطين الدولة الزيانية وأمرائها في رعاية مستمرة للعلم والعلماء، حتى أن منهم من انتسب إلى سلك العلماء، فمنهم السلطان أبي تاشفين الأول الذي ولع بالفن والعمارة، والأمير الفقيه أبي محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن المعروف بابن حفص، والفقيه أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحي ابن يغمراسن المعروف بابن شانشة، والسلطان العالم أبي حمو موسى الثاني ...، فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين وغيرهم يشجعون على الاجتهاد في الدرس وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحركة الفكرية بالدولة الزيانية[52].

أما المرينيون الذين لم يقيموا دولتهم على دعوة دينية أو إيديولوجية سياسية واضحة، فقد لجأوا في بداية أمرهم إلى الدعوة للحفصيين في تونس ورثة فكر ابن تومرت وإيديولوجية الموحدين بصفة عامة من أجل استمالة المغاربة واستجلاب رضاهم. ولذلك حاول المرينيون أن يزينوا بلاطهم بعلماء المغارب الثلاث (الأقصى والأوسط والأدنى) قصد تأسيس مشروعية ثقافية وفكرية تحررهم من التبعية للحفصيين، ومن أجل تحقيق تلك الغاية أضحى للعلماء حضور بارز في العهد المريني

على وجه الخصوص في فترة حكم أبو الحسن المريني وأبو عنان المريني الممتدة من سنة 731–759هـ/1331–1358م. فالسلطان أبو الحسن المريني مثلا كان يحرص على استجلاب العلماء من سائر البلاد التابعة لدولته" فإذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه ودعاه لمجالسته ومحاضرته ومشاورته ومشاركته فيما يتقلده من الأمور الشرعية"[53].

كما اهتم رجال السلطة الحفصيين بالعلم والعلماء، ووفروا الظروف المواتية لانتشار العلم وتفيدنا المادة العلمية المتوفرة لدينا بأن افريقية زخرت بالمؤسسات التعليمية، كما احتضنت مجموعة كبيرة من رجال العلم وهو دليل على ما بلغته افريقية في ذلك العهد من ازدهار علمي ورقي ثقافي، كما يدل على شغف رجال السلطة بالمعرفة وإيمانهم بالعلم وإجلالهم لأهله.

إذن فقد تداخلت حاجة السلطة السياسية والعلمية في تاريخ المغرب الوسيط، بحيث أن كلا منها تكمل الأخرى، غير أن هذا لا ينفي رغبة كل طرف في امتلاك بعض صلاحيات الطرف الآخر، فالسلطة السياسية كانت ترنو إلى امتلاك المعرفة، كما أن السلطة العلمية كانت ترنو إلى المساهمة في الفعل السياسي، مما أدى إلى تصادمها أكثر من مرة. إلا أن سلطة القلم لم تكن لتصمد طويلا أمام سلطة السيف، بما أن السيف كان هو الذي يحسم الصراع في المغرب الوسيط، فهما حصل علماء المغرب الإسلامي بصورة عامة وعلماء المغرب الأوسط بصفة خاصة على علو منزلة نتيجة لاحتكاكهم بالسلطة فإن لا تكافؤ في العلاقة بين الطرفين، على النحو الذي ضل يبدو فيه العالم تابعا للسلطان لا ندا له، وهذا ما جعل فريق المعارضة يتمسكون بخطهم الاستقلالي، ويتعالون عن كل ما من شأنه أن ينقص من استقلاليتهم.

2– العلماء ومنطق البراء من السلطة: لا تأنف ثلة غير هينة من علماء المغرب الأوسط عن الإفصاح عن قناعاتها من أن "شر العلماء علماء السلاطين"[54]، ومما أُثر بهذا الشأن عن الإمام سحنون قوله: "ما أقبح العالم يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه، فيسأل عنه فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه شر من علماء بني إسرائيل..."[55]، ولعله السبب الذي جعل من التاج السبكي يعقد رسالة وجه فيها للعلماء النصيحة بعدم التردد على أبواب السلاطين ومن ذلك قوله: "من هؤلاء– أي العلماء– من يطلب العلو في الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء ...وحب المناصب والجاه فيؤدي ذلك إلى أن قلبه يظلم بهذا الأكدار، ويزول صفاؤه بهذه الأمور التي تظلم القلوب...فكم رأينا فقيها تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه،

ونسي ما كان يعلمه، وإلى فساد عقيدة الأمراء في العلماء فإنهم يستحقرون المتردد إليهم ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم في حوائجه، ويؤول ذلك إلى أنهم يضنون في أهل العلم السوء ولا يطيعونهم فيما يفتون به وينقصون العلم وأهله، وذلك فساد عظيم، وفيه هلاك العالم"[56].

وفي هذا الصدد نجد أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني يقول[57]:

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دانهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت أقلب كفي إثره متندما
ولم أقض حق العالم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وإذا قيل: هذا منهل، قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الضما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فإتباع الجهل كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أذلوه فهان، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

ومما يجب ذكره في هذا المقام أن الغزالي عقد بابا في مخالطة السلاطين وحكم غشيان مجالسهم، والدخول عليهم فقال : اعلموا أن لكم مع الأمراء ثلاثة أحوال : الأولى وهي شرها أن تدخل عليهم، والثانية وهي دونها أن يدخلوا عليك، والثالثة وهي الأسلم أن تعتزل عنهم، لا تراهم ولا يروك. أما الأولى وهي الدخول عليهم فهي مذمومة جدا في الشرع وفيها تغليظات وتشديدات، تواترت بها الأخبار والآثار[58].

والظاهر أن أصحاب هذا الفريق قد استعانوا بجملة من الأحاديث النبوية التي تنهى عن مخالطة السلاطين ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم:" من بدا فقد جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن، وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعدا"[59].

كما كان للسان الدين ابن الخطيب موقفا مناوئا لخدمة السلطة فقال في ترجمة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي من أهل تازة: "امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسائل فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعا لا في راحة دنيا ولا في نصب

الآخرة" ثم قال: "وهذه سنة الله فيمن خدم الملوك، ملتفتا إلى ما يعطونه لا إلى ما يأخذون من عمره وراحته أن يبوء بالصفقة الخاسرة لطف الله بمن ابتلي بذلك وخلصنا خلاصا جميلا"[60]. وفي وصيته لأولاده حذر من الخدمة السلطانية "وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الحظوظ وغلابا؛ فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضح والعار. .."[61].

فلطالما انتقدت ظاهرة تقرب العلماء من السلطة للحصول على الامتيازات المالية، ومن أبرز تجليات هذا الموقف تخصيص راشد ابن أبي راشد لجزء هام من مؤلفه "الحلال والحرام" للتحري عن نصيب الحلال والحرام في أموال السلطان، وشروط صحة أخذ الأموال من أيدي السلاطين الظلمة إلى أن يخلص إلى القول بأن أموال هؤلاء في عصره كلها حرام[62]. كما اهتم جلال الدين السيوطي أيضا بمخالطة السلاطين وحكم حضور مجالسهم والدخول عليهم، فدعا إلى الاعتزال عنهم لما في مجالسة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، لأن جليس السلطان سيضطر إلى غض الطرف عن التجاوزات التي يمارسها السلطان، ومن ذلك غلبة أموال الحرام في دوره وفرشه وآنيتهم، ناهيك عن تقبيل اليد والانحناء في الخدمة وسماع ريائهم والدعاء لهم بطول البقاء أو إظهار المولاة دون القدرة على تغيير المنكر باللسان أو بالفعل[63].

وانتقد ابن عباد بشدة العلماء المتهافتين على أموال السلطة وقد جمعوا منها أموالا طائلة دون تعب أو مراعاة لحلال أو حرام: "بل سدوا أعينهم وتركوها مغلقة مطبقة وأخذوا الأموال من غير مبالاة بشرع ولا ورع من أيدي الظلمة والفسقة... ورأى الأمراء هذه الأحوال من العلماء مع ملازمتهم لأبوابهم ومصاحبتهم لكلابهم فسقطوا من أعينهم...لأنهم رأوهم شاركوهم فيما هم بصدده من الفساد وعاونوهم على مظالم العباد"[64].

إنها الخلفية التي سيصدر عنها قطاع عريض من علماء المغرب الأوسط ممن آثروا البقاء بعيدا عن مواصلة السلطة السياسية؛ ولم يبدوا مقتنعين بالمسوغات التي دعت غيرهم للدخول في خدمتها، ويمكننا رصد عدد من الشواهد الماثلة في تاريخ المغرب الإسلامي:

من الأهمية بمكان القول بأن محمد بن إبراهيم الآبلي (ت 757هـ) نفر من العمل في وظائف الدولة، ذلك أنه فر من أبي حمو موسى الزياني لما حاول هذا الأخير إرغامه على العمل عنده، فالتحق بفاس أين اختفى عند شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي[65].

ويبدو أن العلماء الذين استهواهم الزهد كانوا أول من أظهروا معارضتهم للسلطة برفضهم العمل عندها، ودون أن نخوض في تاريخ مسيرة الرفض تجدر الإشارة إلى أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو (ت845هـ) الذي اشتهر بأفعاله المرضية، وسجاياه المحمودة، فأوقاته مضبوطة للعبادة وأزمانه محفوظة للإفادة، والظاهر أنه عد ضمن قائمة العلماء الذين رفضوا الاشتغال عند السلطة، وحسبنا في ذلك أبيات كان كثيرا ما ينشدها[66]:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي فدام الأنس لي ونما السرور

وأدبني الزمان فما أبالي هجرت فلا أزار ولا أزور

ولست سائلا ما دمت حيا أسار الجند أم ركب الأمير

ويذكر المقري الجد أنه سمع شيخا ينشد أمام باب السلطان بمراكش أبياتا[67]:

أبصرت أبواب الملوك تغص بالـ راجين إدراك العلا والجاه

مترقبين لها فمهما فتحت خروا لأذقان لهم وجباه

فأنفت من ذلك الزحام وأشفقت نفسي على إنضاء جسمي الواهي

ورأيت باب الله ليس عليه من متزاحم فقصدت باب الله

وجعلته من دونهم لي عدة وأنفت من غيي وطول سفاهي

أما صاحب نفح الطيب فيشبه الاحتكاك بالملوك بالآفة، فيقول معقبا على محنة المقري الجد:" هذه آفة مخالطة الملوك، فإن مولاي الجد كان نزل (أي ترك) عن القضاء وغيره، فلما أراد التخلي لربه لم يتركه السلطان أبو عنان"[68]. وتجدر الإشارة إلى أن المقري الجد قد واجه عدة مشاكل أثناء خدمته للسلطان أبي عنان المريني، وهذا ما جعله ينفر من الوظائف السلطانية ويؤثر العزلة والاعتكاف[69].

والظاهر أن عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (875هـ) الذي عد من أصحاب الورع والوقوف مع الحق، لا يتحرج من إبداء موقفه الرافض لمخالطة السلاطين، فيشير إلى رحلة إلى بجاية قام بها عام 802هـ أين التقى بثلة من أخيار العلماء والأولياء من بينهم أصحاب الفقيه الزاهد عبد الرحمن الوغليسي وأصحاب الشيخ أبي العباس أحمد ابن إدريس فيصفهم بأنهم أصحاب ورع ووقوف مع الحد لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم، وسلك مسلكهم هذا كل من أبي الحسن على ابن محمد البليليتي وعلي ابن موسى وأبي العباس النقاوسي[70].

لقد أخذ رفض العلاقة مع السلاطين عدة مظاهر وسلوكات أبداها علماء المغرب الأوسط اتجاه السلطة ورغبتها في تقريبهم، ومن ذلك تهرب العلماء من تقلد المناصب لدى الدولة، وتحمل لنا كتب الاستغرافيا التاريخية للمغرب الإسلامي عدة علماء من المغرب الأوسط رفضوا الخطط التي كانت تعرض عليهم من طرف الحكام، من بينهم نذكر سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي (ت 887هـ) الذي أكره على قضاء الجماعة فأقام به مدة لكنه ما لبث أن تملص من الوظيفة المسندة إليه، ليلازم التدريس والإفتاء.ونفس الشيء نجده عند عبد الله بن أحمد بن عيسى الذي أرغم على قضاء بجاية لكنه اعتزله وآثر التدريس[71].

ومن أوجه رفض العلماء للعلاقة مع السلاطين، التهرب من لقاء السلطان أو بطانته وتجنب الاجتماع به، وفي ثنايا كتب الطبقات والتراجم العديد من النماذج التي تجسد هذه الحالة، يتصدر هذه القائمة أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1490م) الذي لما رأى على بعد أناس راكبين على خيول وثياب فاخرة، فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: خواص السلطان، فتعوذ بالله ورجع إلى طريق آخر، ولما لقيهم مرة أخرى ولم يتمكن من الرجوع استدار للحائط، وغطى وجهه حتى ذهبوا. ولما وصل في تفسير سورة الإخلاص فعزم على قراءتها يوما وقراءة المعوذتين يوما آخر، وبلغه أن الوزير يريد حضور الختم قرأ السور الثلاث في يوم واحد تجنبا للقائه، كما رفض طلب السلطان لقراءة تفسيره بحضرته، ولما ألح عليه كتب إليه معتذرا بغلبة الحياء له في حظرته فصرف عنه نظره[72].

ومن جهته رفض الإمام العالم الحسن أبركان (ت857هـ/1453م) الخروج إلى السلطان الزياني أبي مالك عبد الواحد (ت814هـ–827هـ/1412–1424م) الذي مر عليه للتبرك به، مما سبب غضب السلطان عليه[73].

وكان رفض الهبات والأعطيات التي كان يمنحها السلاطين للعلماء مكملا لمشهد الرفض الذي أبداه علماء المغرب الأوسط تجاه السلطان، فقد رفض الحسن أبركان أعطيات السلاطين واعتبرها تقييدا له[74]. كما كان محمد السنوسي لا يقبل هبات السلاطين وإذا جاء ووجدها بداره أنكر على أهله قبولها وغضب[75]. كما رد العالم عبد الرحيم بن محمد اليزناسي هدايا والي بجاية وارتحل إلى فاس[76].

بعد وقوفنا على أهم مظاهر رفض علماء المغرب الأوسط الاحتكاك بالسلطة الحاكمة، تعين علينا التأمل في أسباب الرفض عند هذه النخب العلمية:

يظهر أن الخوف من ظلم وجور السلاطين كان أكبر عامل في تورع هؤلاء العلماء، ذلك أن النخبة العالمة لم تحظ بالمساحة الكافية من أجل التمتع بقدر من الحرية، نظرا للمضايقات التي تلقوها من السلطان الذي كان دائم التوجس منها، وقد أطلق عبد الرحمن بن خلدون على هذه الحالة السياسية السيكولوجية اسم "النزعات الملوكية"، فضلا على الحاقدين والمغرضين من بطانة السوء الذين كانوا يحيكون الدسائس والمؤامرات والانقلابات ضدها بهدف العزل، وقد أصاب العلماء المشتغلين عند السلطة محن شكلت بالنسبة لهم منعرجا نحو التحول إلى حياة الانقطاع والانقباض والتخلي[77].

يبدو أن لسان الدين ابن الخطيب قد فهم اللعبة السياسية جيدا، وذلك من خلال مراسلاته المتكررة إلى علماء المغرب الأوسط يحثهم فيها على ترك الخدمة السلطانية، فها هو يراسل ابن مرزوق في رسالة طويلة يحذره فيها من خدمة السلطان لما ينجر عنها من مصائب "... وقد أصبحت سعادتي عن سعادتك فرعا، فوجب النصح طبعا وشرعا، فليعلم سيدي أن الجاه ورطه، والاستغراق في تيار الدول غلطة، وبمقدار العلو إلا أن يقي الله تعالى تكون السقطة وأنه والله تعالى يعصمه من الحوادث، ويقيه من الخطوب الكوارث وإن تبعه الجم فهو مفرد، وبسهام الحسدة مقصد، وأن الذي يقبل يده يضمر حسده، وما من يوم إلا والعلل تستشرى والحيل تريش وتبرى، وسموم المكابد تسري، والعين الساهرة تطرق العين النائمة من حيث لا تدري ولا تدري .. وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها أو تنفع مع غير جنسها (فذلك) قياس غير صحيح وهبوب الريح، وإنما هي درجة فوق الوزارة والحجابة، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة، وجاه يجر على القبيل الأذيال، ويفيد العز والمال وبحر هال، وصدور تحمل الجبال، وإن قطع بالأمان من جهة السلطان، لم يأمن أن يقع فيه..."[78].

وقد يكون سبب اعتزالهم عدم وضوح الرؤية السياسية لديهم أو لعدم وضوح الأحداث بالنسبة لهم خاصة وقد شهدت عهود الدويلات الثلاث فترات فتن واضطراب قتل على إثرها بعض العلماء كالغبريني ويحي ابن خلدون، وغيرهم فتولد عن هذا عزوف عن السلطة[79].

كما أن العلماء الذين استهواهم الزهد والتصوف، غالبا ما ربأوا بأنفسهم عن مخالطة ذوي السلطان أو أعوانهم، بل إن بعضهم فضل الموت على أن يقف بين أيديهم.

وفي ختام هذه الوقفة نتساءل فيما إذا كان اختلاف مواقف علماء المغرب الأوسط اتجاه السلطة الحاكمة بين التأييد والمعارضة قد كان وبالا على الحياة السياسية التي لم تنفك عن تأثيرهم، إن في البلاط أو في المعارضة، أم أن السلطة الحاكمة التي وجدت نفسها بين حدي العالم المراقب الذي ترتاب منه الوصاية، والعالم المعارض الذي تتوجس منه الثورة قد خفف من غلواء السلطة وعنفوانها، وألزمها بكثير من الحدود والضوابط التي طالما أبدت نزوعا للانفلات منها؟؟!!

الهوامش:

1– أبو العباس أحمد الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981، ج10، ص 6.

2– القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن حميد، منشورات مركز إحياء التراث الإسلامي، السعودية، د.ت، ج2، ص429.

3– نفسه، 2/ 443.---**4–**عبد الغني الدقر: **مالك بن أنس إمام دار الهجرة (93– 197هـ)**، ط3، دار القلم، دمشق، 1419هـ /1998م، ص 343-345.*---**5–** نفسه، ص 351.---**6–**أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت450هـ/1058م): **نصيحة الملوك**، تحقيق: خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1403هـ/1983م، ص 39.

7– نفسه، 128؛ و**درر السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1، دار الوطن للنشر، الرياض، 1417هـ/ 1997م، ص 119-120.---**8–**نصيحة الملوك، ص 128.---**9– إحياء علوم الدين**، مكتبة ومطبعة كرباطة فوترا، أندونيسيا، د.ت، ج1، ص18؛ والتبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق: أبو عبد الرحمن عقيل وعبد الحليم عويس، دار عالم الكتب، الرياض، 1982، ص 175. ---**10–** لخضر بولطيف: **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، ط1، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية– فرجينيا، 1429هـ/ 2009م،ص 64؛ و" **الفقهاء والسلطة في الغرب الإسلامي بين منطق الولاء ومنطق البراء**"، مجلة منار الهدى (المغرب)، العدد 15/ 2010، ص 62. ---**11–**الطرطوشي: **سراج الملوك**، تحقيق: جعفر البياتي، رياض الريس، لندن، 1990، ج1، ص171.---**12–واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تقديم: عبد الرحمن عون، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1982، ص 131.---**13–** نفسه، ص 111.---**14–**عبد الغني الدقر: **الإمام مالك بن أنس**، ص 343.---**15–**الشوكاني: **رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين**، تحقيق: محمد الصغير العبادلي، دار ابن حزم، بيروت،2004، ص74؛ وابن عثمين : **تعليقات الشيخ ابن عثمين على رسالة" رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين للشوكاني"**، اعتناء: سليمان بن صالح الخراشي، دون بيانات النشر، ص41---**16–**يحدد عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته مهام العالم في الدولة وأعطى له مكانة إستراتيجية في تسيير شؤون لدول" فالفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان، أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقا أو مقيدا، أو في موجبات العزل إذا عرضت، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية...". **المقدمة**، نشرة أحمد الزعبي، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 269.---**17–**الشوكاني: **رفع الأساطين**، ص76.---**18–المعيار**، 2/ 491- 492.---**19–المقدمة**، ص128-176، 184-370.---**20–** نفسه، ص 270_273.---**21–**نفسه، ص 273-276.---**22–** نفسه، ص 279- 284.---**23–**نفسه، ص 314_316.---**24–**نفسه، ص 320- 323.

25–المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسةوتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، منشورات الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1981، ص 359-382.---**26–**نفسه، ص 260-270.---**27–**انظر: **واسطة السلوك في سياسة الملوك**.---**28–**الونشريسي: **المعيار**، 10/4.---**29–**عبد الرحمن بن خلدون: **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/ 2004م، ص 70.---**30–**ابن مريم المليتي المديوني: **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ / 2011م، ص297.---**31–**مصطفى نشاط:" **بين السلطان أبي عنان والفقيه الشريف التلمساني المتوفى سنة 771هـ**"؛ ضمن كتاب **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب – الائتلاف والاختلاف**، تنسيق: محمد لغرايب وآخران، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل، المغرب، 2013، ص 97_98. ---**32–**ابن مريم: **البستان**، ص 298.

33–نفسه، ص 295.---**34–**نفسه، ص 296.---**35–**وفيه قال ابن مريم التلمساني :" كان قوي اليقين طاهر النفس عن رذيلة الطمع، لا يشغله أمر الرزق من علم ولا عمل، إرتاض نفسه للطلب، ودأبها حتى سهل عليه، فنال الخيرات الدينية والدنيوية، يجلس عند الملوك في أرفع المجالس، ينصتون له، فيقيم الحق مع ماله من جميل الذعر وبعد الصيت وعلو المنصب، لا يخدمهم بشيء من دينه ولا يسألهم حوائج نفسه ولا يخاطبهم إلا بما يسوغ شرعا، يعظم أهل الحق في قلوبهم، ولا يجسر عليه، لا ينتصر لنفسه، ويصبر على حاسده ويدافع بالتي هي أحسن، يقبل عثرة أولي الفضل ويلتمس أحسن الوجوه ويتغافل عن غيره..." . **البستان**، ص 295- 296. ---**36–تعليقات ابن عثمين على رسالة رفع الأساطين**، ص16.---**37–** إن الاعتناء بدراسة السلطة أو بدراسة المجتمع أو بالبحث في العلاقة بين السلطة والمجتمع أمر وإن كان معلنا في العديد من الأبحاث، إلا أنه يخفي من جانبه أهمية فئة العلماء باعتبارها فئة فاعلة في هذا الجانب أو ذاك، وهذا يعني أن أغلب الأبحاث التي تناولت السلطة والمجتمع أو هما معا، كانت تصنف العلماء في جانب الموالين للدولة والمعارضين للمجتمع، في حين أمكن للعلماء أن يكونوا في جانب الموالين وللمناصرين لهموم المجتمع وللمعارضين لتطلعات الدولة. لذلك فأهمية العلماء عند كل من الدولة والمجتمع كونهم يقعون في منطقة وسطى بينهما، عناصر ولائها لهذا أو ذاك تتعلق بمدى مكانتهم العلمية والمجتمعية، وسعيهم لتحقيق ملامح الإصلاح المجتمعي الذي ينشدونه. محمد بركة : " **الخاصة بين السلطة والمجتمع خلال العصر المرابطي – محاولة تأطير العلاقة–**"؛ ضمن كتاب **السلطة والفقهاء والمجتمع**، ص 470. – --**38–**ابن مرزوق: **المسند**، ص 322- 323.---**39–**التعريف، ص80.

40– انظر:**نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق: محمود بوعياد، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985م.

41–انظر: **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن** ---**42–**مؤلف مجهول: **زهر البستان في دولة بني زيان(760– 764هـ / 1359– 1363م)**، تقديم: محمد بن أحمد باغلي، ط2، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1433هـ / 2012م

43–نفسه، ص132.---**44–** نفسه، ص 133.---**45–**نفسه، ص 134.---**46–** نفسه، ص 134.

47–نفسه، ص 135- 137.---**48–** أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041هـ): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ / 1988م، ج5، ص 391-392.---**49–** نفسه، 5/ 260.

50–ابن القطان علي بن محمد الفاسي: **نظم الجمان في أخبار الزمان**، تحقيق: محمد علي مكي، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، د.ت، ص 29.---**51–**علي الإدريسي : " **جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون**"؛ ضمن كتاب الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق: بناصر البعزاتي، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، 1427هـ / 2007 م، ص 14.---**52–**عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص320.---**53–**على الإدريسي:" **جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون**"، ص 14-15.

54–وفي هذا يقول صاحب المعيار :" اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين، وللعلماء معهم أحوال، فكان الصدر الأول يفرون منهم وهم يطلبونهم، فإذا حصل لهم ( ) أفرغوا عليهم الدنيا إفراغا ليقتنصوا بذلك غيره، ثم جاء أهل العصر الثاني فطمحت نفوسهم إلى دنيا من حصل لهم ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم، فكانوا لا يأتونهم، فإن دعوهم أجابوا إلا القليل، فانتقصوهم كما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم. ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة وأكثرهم إن دعي أجاب، فاستقصوا بقدر ذلك أيضا . ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم فامتنعوا عن دعاء غيرهم إلا على جهة الفضل ومحبة المدحة منهم، فلم يبقوا من ذلك إلا النزر اليسير وصرفوهم في أنواع السخر والخدم إلا القليل وهم ينتظرون صرفهم والتصريح بالاستغناء عنهم وعدم الحاجة إليهم...". الونشريسي: **المعيار**، 480/2.

55–الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي (ت 696هـ): **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور ، ط2، مكتبة الخانجي، مصر والمكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ج2، ص96.---**56–**السبكي تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ): **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمد علي النجار وآخران، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1413هـ / 1993م، ص 68.---**57–**نفسه، ص 69-70.---**58–**جلال الدين السيوطي: **ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين**، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط1، دار الصحابة للتراث للنشر والتوزيع والتحقيق، مصر، 1411هـ / 1991م، ص58.

59–حديث صحيح، أخرجه البهيقي (10/ 101)؛ والسيوطي : **ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين**، ص24.

60–المقري: **نفح الطيب**، 7/ 143---**61–وصية لسان الدين ابن الخطيب لأولاده**، تقديم : عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، منشورات إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1408هـ / 1987م، ص44.---**62–**أبو الفضل أحمد بن راشد الوليدي : **الحلال والحرام**، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن العمراني الإدريسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1410هـ/ 1990م، ص 21.---**63–ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين**، ص 59 – 60.---**64–**محمد ابن عباد الرندي: **الرسائل الكبرى**، طبعت بتصحيح أحمد بن محمد المهدي، طبعة حجرية، 1320م، ص 124.---**65–** عبد الرحمن بن خلدون: **التعريف**، ص 41؛ وابن مريم: **البستان**، ص 346.---**66–**أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت 891هـ): **رحلة القلصادي**، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، منشورات الشركة الوطنية التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 104-105؛ وابن مريم: **البستان**، ص 106.---**67–**للمقري: **نفح الطيب**، 5/ 221-222.---**68–** نفسه، 5/ 214.---**69–**ابن خلدون: **التعريف**، ص 854-855؛ والإحاطة، 2/ ص 119.---**70–** أحمد بابا التمبكتي (ت 1036هـ / 1627م): **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس-ليبيا، 1989م، ص 258-259. ---**71–**نفسه، ص 215-216.---**72–**الرغم مما عرف عن السنوسي من رفض لمخالطة السلاطين، إلا أنه كسر هذه القاعدة عندما يتعلق الأمر بقضاء حوائج الناس عند السلاطين. ابن مريم: **البستان**، ص 377- 379.---**73–**نفسه، ص 169-170.---**74–**نفسه، ص 172-173.---**75–** نفسه، 378.---**76–**التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 266.---**77–** الطاهر بونابي: " **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ 14و 15 الميلاديين**"، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر2، 1430هـ / 2009م، ص 404.---**78–**المقري: **نفح الطيب**، 6/ 424.---**79–**سليمان ولد خسال:" **جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة (633 – 922م)**"، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ص 187.

Abstract:

Among the areas that contribute when you open them in revealing the mystery that prevails in some sides from the history of the Islamic Maghreb, the relationship between the authority and the elite scientist, because he cannot draw a clear picture that embodies the relationship between the scientist and the Sultan, ranging between loyalty and fulfillment and between aversion and hostility, while many scientists have preferred convergence under the banner of the Sultan and his service, many groups of scientists saw that this contradicts their ethics as it has the unfortunate aspect and humiliation to his family.

This is what pushed us to conduct a study in this subject to solve the problematic of the relationship between the scientist and the Sultan and trying to monitor the changes in the interactive relationship between the elite scientist and the ruling authority ?